أصول المصطلح البلاغي وتطوره :

انطلق العرب القدماء في درسهم اللغوي للفصاحة والبلاغة من مفهوم تنظيري ذوقي ، ومن ثم مارسوه تطبيقاً عملياً في الكلمة المفردة والمؤلفة

وحين نشأت نظرات بلاغية فطرية في العصر الجاهلي ثم تطورت في العصور التالية كان النص وحده صاحب السيادة في التحليل فتوقفوا عند الدلالة الحقيقية والدلالة المجازية

وأدركوا أنّ هذه الكلمة أفصح من تلك في هذه الموضع دون ذلك ، علماً أنّ العرب يتميزون بسليقة فطرية ذات قدرة عالية على براعة الكلم حتى قال النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) : (أنا أعربكم ، أنا من قريش ، ولساني لسان بني سعد) أي أفصحكم ، وقال عليه السلام : (أُعطيتُ جوامع الكلم وأُختصر لي الكلام اختصاراً)

لعل الدرس البلاغي للفصاحة والبلاغة وغيرهما يدين بالفضل للدراسات القرآنية واللغوية والأدبية في وقت واحد ، ومن ثم تطور على يد من تأثر بالثقافة اليونانية ... وانتهى إلى تقعيد سافر

هذا التأثير الأخير ذهب ببهاء الذوق العربي والنقدي واللغوي المرهف والواعي الذي سما به الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) بينما اضرّ به كثيراً لابن سنان الخفاجي (ت466هـ) ، ومن حذا حذوه كالسكاكي في تقنينه بقواعد صارمة البلاغة ... منزلتها بين العلوم العربية

إنّ البلاغة فن من فنون اللغة العربية لا يستغني عنها أديب أو ناقد ، فالأول : يعرف بها سبل القول وطرائق التعبير والثاني : يميز بها رائع الكلام وجميله من ساقطه ورديئه

وتمثل البلاغة روح اللغة ، بل علم من علوم اللغة ، بها وبالنقد يقاس الأدب ويميز حسنه من رديئه وجميله من قبيحه وهي روح الأدب كما يقال

والبلاغة من العلوم العربية الإسلامية وقد خدمت اللغة خدمة عظيمة وأبرزت ما في القرآن من وجوه الجمال وأوضحت سر الإعجاز وذلك بالبحث في أسلوبه وطريقة أدائه المعاني وبموازنته بأساليب العرب البليغة

والبلاغة ليست مقصورة على العرب ولا على أمة دون امة وإنما هي سمة عظيمة القدر في اللغات التي بلغت درجة كبيرة في التطور والارتقاء

ويثار سؤال هنا هل البلاغة العربية قديمة ؟ ، وكيف نستدل عليها ؟

يمكن الاستدلال على أنّ العرب عرفوا كثيراً من الأحكام النقدية والقضايا البلاغية قبل الإسلام بأمرين

الأول : عقلي لا يمكن إنكار وهو أنّه لا يصدق أن الشعر وصل إلى ما وصل إليه فذلك العصر

وانّ الخطابة بلغت ذروتها ، وانّ اللغة أخذت صورتها من غير أن تكون هنالك أصول عامة تعارف عليها

الشعراء والخطباء وساروا عليها فيما نظموا وقالوا

والثاني : نقلي وهو ما آثر عنهم وما جاء عن خطبائهم ووصف خطبهم وقد كان الخطباء يعتزون ببيانهم ويفخرون بأنفسهم

وقد استدل **الجاحظ** من ألفاظ العيي والبكيء ، والحصر والمفحم والخطل والمسهب على أنّ العرب قبل الإسلام عرفوا كثيراً من عيوب البلاغة والخطابة

وما تقدم نستدل على أنّ البلاغة عند العرب قديمة قدم الأدب بشعره ونثره ، وقد تكون المصطلحات البلاغية والنقدية غير معروفة في ذلك العصر، لكن الفنون البلاغية التي وردت في الشعر تشهد أنّ العرب كانوا يعرفون الأساليب المختلفة والصور المتعددة التي تزيد كلامهم جمالاً

فقد يسال ما هي الطوائف التي اشتغلت بالبحث البلاغي أو الفئات المؤثرة في نشأة وتطور الدرس البلاغي ؟وهي :

أولاً : اللغويون والنحاة .

كان للغويين والنحاة اثر بارز في مد تيار البلاغة بينابيع من دراساتهم في اللغة وبحثهم في الألفاظ ، وقد ذكروا :

1 – أسباب الخفة والثقل

2_ عوامل التنافر والتلاؤم التي تفضي إلى فصاحة الألفاظ أو غثاثتها فقد أفادت بذلك كلّه الدراسات البلاغية

3_ كان لهم دور في نشأة هذا العلم وتطور مباحثه وجهوا اهتمامهم بالدرجة الأولى إلى مسائل اللغة ولكنهم تناولوا النصوص التي تهيأت لهم وحاولوا أن يصلوا إلى نواحي الجمال أو القبح فيها

4_ وقد تناولوا بعض مسائل البلاغ والنقد الأدبي وان لم يكن تناولهم لها على نحو ما نجد عند البلاغيين المتأخرين

وأسهم اللغويون والنحاة البصريون في الدرس البلاغي ومنهم : الخليل بن أحمد الفراهيدي ت 175هـ ، وسيبويه ت 180هـ ، وخلف الأحمر ت 180هـ ، وقطرب ت 206 هـ ، وأبو عبيدة ت 216 هـ ، والأصمعي ت 216 هـ ، وأبو حاتم السجستاني ت 250 هـ ، والمبرد ت 285هـ ..أل

ومن جهود اللغويين في ذلك كتاب (مجاز القرآن) لأبي عبيدة معمر بن المثنى ت 210هـ

لم تكن كلمة (مجاز) تعني المصطلح البلاغي المعروف ، وإنما كان يراد بها التفسير أو التأويل

لكن ليس معنى ذلك إنّ كتاب مجاز القرآن لم يكن إلا بياناً لمعاني الآيات فحسب ، بل تضمن أثناء التفسير بعض المسائل التي تعد من البلاغة

ففي قوله تعالى:

(وسأل القرية التي كنا فيها والعِير التي أقبلنا فيها)

يتحدث عن المجاز بالمعنى البلاغي المعروف ويشير إلى ما فيه من الحذف ويقول: " فهذا محذوف فيه ضمير مجازه وسل أهل القرية ومن في العير " كما يشير إلى ما أطلق عليه الإلتفات وذلك في قوله " ومن مجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الغائب ومعناها للشاهد وقال : (ألم ، ذلك الكتاب) ، مجازه : الم هذا القرآن . ومن مجاز ما جاءت مخاطبة الشاهد ثم تركت وحولت مخاطبته هذه إلى مخاطبة الغائب . قال الله (حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة)

كما أنّ علماء اللغة والنحو لهم أثر واضح في البلاغة من ذلك : أرى أنّ عبد الله بن المعتز صاحب كتاب (البديع) يذكر الخليل بن احمد ت 175هـ في صدر حديثه عن التجنيس والمطابقة ولعله كان ينقل عن الخليل المعنى اللغوي الأصلي للتجنيس والمطابقة

كما أنّ سيبويه ت 180هـ يعرض في كتابه بعض الخصائص الأسلوبية التي عني بها فيما بعد علم المعاني من مثل التقدم والتأخير والتعريف والتنكير والحذف ومن حين إلى آخر نرى إشارات إلى المسائل البيانية في الكتاب

ثانياً : المفسرون والأصوليون (الفقهاء)

للمفسرين والأصوليين إثرهم الكبير في نشأة وتطور البلاغة ويرتبط أثرهم بأثر القرآن الكريم الذي نزل حجة بلاغية كبرى ومعجزة أدبية عظمى وكان تأثير القرآن واضحاً في اتخاذه مدار الدراسات البلاغية وكانت آياته موضع اهتمام الجميع .

وكانت إحدى الوسائل في كشف أسرار الإعجاز وتبيان ما في الآيات البينات من روعة وجمال وقد وضع المفسرون لكتبهم مقدمات بلاغية تحدثوا فيها عن البلاغة وفنونها . كذلك كان للفقهاء والمفسرين أثر في تاريخ البلاغة ونشأتها ، فالفقهاء اعتمدوا في استنباط الأحكام الدينية وأصول التشريع الإسلامي على نصوص من الكتاب والسنة ، وهذا بدوره أدى بهم إلى النظر في أساليب القرآن البيانية ، والتأمل في ألفاظه ودلالاتها وفي طرائق التعبير وحراميها

وكان الإمام الشافعي محمد بن إدريس ت 304 هـ أول من كتب في أصول الفقه وله كتاب (الأم) ذكر حقيقة البيان العربي وقسمّه إلى بيان القرآن وبيان السنة للقرآن والبيان بالرأي وهو القياس ثم جاء الفقهاء فتوسعوا في البحوث اللفظية البلاغية

كذلك أسهم المفسرون في تطوير البلاغة وذلك بالتعرض عند تفسير آيات القرآن إلى إبراز جانبها البلاغي لفظاً ومعنى وأسلوباً.

ومن أهمّ التفاسير البلاغية كتاب (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) – جار الله محمود بن عمر الزمخشري ت 538 هـ

ثالثاً : الشعراء والكتاب

كان الشعراء منذ الجاهلية يعنون بالقول وبجودة أشعارهم وينقحونها وقد دلت الملاحظات على أنّهم أصحاب ذوق ومعرفة بجيد الشعر ورديئه ومن الشعراء الذين كان لهم السبق في الدراسات البلاغية عبد الله بن المعتز الذي ألّف كتاب البديع الذي فتح البحث والتأليف في البلاغة

ومن الشعراء الذين أغنوا البلاغة : الشريف الرضي ت 406هـ ، وابن رشيق القيرواني ت 463هـ ، وابن سنان الخفاجي ت 466هـ ، وأسامة بن منقذ ت 584هـ ، وابن أبي الإصبع المصري ت 654 هـ

وكذلك كان للكتاب الدور الكبير في نشأة الدرس البلاغي ولعل أهمّ من أثر في البلاغة من الكتّاب ابن المقفع ت 143هـ ، والجاحظ ت 255هـ ، وقدامة بن جعفر ت 337 هـ ، وابن وهب الكاتب ، وأبو هلال العسكري ت 395 هـ ، وابن نافيا البغدادي ت 485هـ ، وضياء الدين بن الأثير ت 637هـ، وشهاب الدين محمود الحلبي ت 725هـ

ويعد أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ من أكثر الكتاب تأثيراً في البلاغة ، وذلك لما ذكره في كتبه لا سيما (البيان والتبيين) و(الحيوان) من فنون بلاغية وأساليب بليغة وأصبحت دراسته لمسائلها أساساً للبلاغيين ونظراً للجهود الكبيرة التي بذلها الجاحظ في إرساء دعائم الدرس البلاغي العربي لا بُدّ من الإشارة إلى أهمّ تلك الجهود والتي يمكن تلخيصها بما يأتي :

1_ جمع ما قيل في البلاغة وحفظها من الضياع

2_ انتبه إلى ما لدى الأمم الأخرى من بلاغة ونقل بعض الأقوال عنهم

3_ ذكر الكثير من المصطلحات البلاغية التي أصبحت مرجعاً للبلاغيين فيما بعد

4_ أشار إلى بعض الفنون وذلك بذكر الأمثلة من غير أن يضع لها المصطلحات

5_ اعتنى بالأساليب البلاغية أكثر من عنايته بالقواعد والتقسيمات

6_ اهتم بأسلوب القران الكريم وما في آياته من تشبيهات ومجازات

7_ مهد للبلاغيين والنقاد البحث في السرقة والموازنة بين الكلام ومعرفة تطور المعاني

8_ ربط بين المعنى واللفظ ، ومقتضى الحال ، وقد أصبحت هذه القاعدة تعريفا للبلاغة فقالوا (مطابقة الكلام لمقتضى الحال)

رابعاً : الفلاسفة والمتكلمون

أثر المتكلمون في نشأة البلاغة وتطورها . والمتكلمون هم أصحاب الصناعة الكلامية في بحثهم للقران الكريم وتدليلهم على إعجازه واستنباط العقائد منه والدفاع دونه وقد ظهر أثرهم مبكراً . وكان لاهتمام علماء الكلام بالبلاغة أكثر من سبب واحد منها :

1_ قضية إعجاز القرآن ، فقد كانت هذه القضية من أهمّ القضايا التي عني بها علم الكلام وارتباطها بالبلاغة متأت من أنّ أحد أهمّ وجوه إعجاز القرآن هو الوجه البلاغي

2_ إيمان المعتزلة وهم ابرز المتكلمين بأن الشعر العربي وهو مجال العربية الرئيس مصدر من مصادر المعرفة الكبرى ووعاء لها ، ومن المتكلمين الذين شاركوا في البلاغة : واصل بن عطاء ت 131هـ ، عمر بن عبيد ت 144هـ ، وسهل بن هارون ت 173هـ ، والجاحظ الأديب المعتزلي ت 255هـ

3_ وقد طبع هؤلاء وغيرهم البلاغة بطابع عقلي يعتمد على الاستدلال والدقة في التحديد والتقسيم

وألّف بعض الفلاسفة المسلمين في البلاغة والنقد ولكنهم كانوا يغرقون من بحر أرسطو طاليس ، ويلخصون كتابيه (الشعر) و (الخطابة) فقد اختصر الكندي ت 202هـ كتب الشعر

ولخصه الفارابي ت 339هـ

ومن الفلاسفة الآخرين الذين عنوا في البلاغة على هذا المنوال ابن سينا ت 428هـ وابن الهيثم ت 430 هـ وابن رشيق ت 595هـ

إنّ البلاغة العربية تأثرت بالمنطق ودراسته ، ولكن في غير دور نشأتها ، بل فيما تلا هذا الدور ، وبالتحديد في بداية القرن الرابع الهجري وعلى يد قدامة بن جعفر فهو أول من تأثر بصناعته المنطقية في دراسة النقد والبلاغة في كتابه (نقد الشعر)

من مبادئهم:

1_ لقد اعتقد أولئك المتكلمون قواعد الإيمان ، وأقروا بصحتها ، وأضرابها ، ثم اتخذوا أدلتهم العقلية للبرهنة عليها ، فهم يبرهنون عليها عقليا كما برهن القرآن عليها وجدانيا

2 _ وقد اعتمدوا الجدل طريقهم للدفاع عن عقيدتهم ورفض حجج خصومهم أياً كانوا

3_ كما اتخذوا من الألفاظ وفهم دلالاتها وعرضها على ألوان شتى وسيلتهم إلى الإقناع والغلبة على معارضيهم

4_ ومن المعتزلة من كان يبدأ جدله بالشك لينتهي إلى الاقتناع أو الإقناع

وكان القرآن والسنة مرجع المتكلمين في جدلهم

وقد اشتهر زعماؤهم بالخطابة والبلاغة ولهذا كانوا يتخيرون الألفاظ للمعاني ويتوسعون في الاشتقاق اللغوي وهكذا عني المتكلمون بفهم القرآن وما فيه من فنون التشبيه والمجاز والبديع . وجادلوا في تعبيراته ، وأداهم هذا الجدل إلى التفنن اللفظي والبحث عن القضايا البلاغية

وليس من قبيل المصادفة أن نجد أول صحيفة مكتوبة في البلاغة لأحد رجال المعتزلة (بشر بن المعتمر ت 210هـ) وفي هذه الصحيفة نجد بشراً

1_ يحدثنا عن المعاني وما يناسبها من الألفاظ . كما يحدثنا عن اللفظ وما يجب أن يكون عليه من الرشاقة والعذوبة والخفة

2_ ونجد فيها حديثاً عن ضرورة موافقة الكلام لمن يوجه إليهم من جهة ومناسبته لموضوعه من جهة أخرى أو ما أطلق عليه البلاغيون مراعاة الكلام لمقتضى الحال . ومن الأسماء اللامعة

أبو عثمان الجاحظ (255هـ)الذي عني بالبيان وطرق بعض مسائل البلاغة في تراثه العظيم ، وعلي بن عيسى الرماني (386هـ) النكت في إعجاز القرآن ، جار الله الزمخشري – الكشاف الذي قام على أسس بلاغية

هل كانت نشأة علم البلاغة نشأة عربية خالصة ؟

الجواب : وجدت لها بذور أولى في العصر الجاهلي ، وان هذه البذور نمّاها الإسلام

ونمّاها البحث والجدل حول القرآن وإعجازه ، أعني حول تفهم مواضع الإعجاز في القرآن وتذوق بلاغته كما نماها أيضاً ظهور الفرق الإسلامية المتعددة

هذه الفرق التي راحت تعنى بالبلاغة وفنونها من اجل الاستقامة بها والإفادة منها في الاستدلال والبرهنة على آرائها وأفكارها الخاصة . ولهذا ظلت البلاغة في دور نشأتها على الإجمال عربية خالصة تستمد عناصر مقوماتها من الثقافة العربية وما يتصل بها

وإذا كان قد تسرب إليها بعض عناصر بلاغية أجنبية من بلاغة الهند والفرس واليونان فإن ذلك كان في الأدوار التي تلت دور نشأتها

أعني في أدوار نموها وتقعيدها في العصر العباسي ، عندما أخذت حركة النقل والترجمة من الثقافات والآداب الأجنبية تنشط على نطاق واسع برعاية الدولة أو رعاية الخلفاء العباسين من أمثال المنصور والرشيد والمأمون

الاتجاهات البلاغية (المدارس) وخصائصها

ولا نكاد نصل إلى العصر العباسي الأول حتى نجد أن الملاحظات البلاغية قد اتسعت نظراً لتطور النثر والشعر بسبب تطور الحياة العقلية والحضارية وظهور طائفتين من المعلمين : عنيت أحداهما باللغة والشعر

وهي (المدرسة الأدبية) ، وعنيت الأخرى بالخطابة والمناظرة وأحكام الأدلة ودقة التعبير وروعته وهي (المدرسة الكلامية) أو كما يسميها السيوطي (طريقة العرب البلغاء وطريقة العجم وأهل الفلسفة)

ولكل من هاتين المدرستين خصائص متميزة

أولاً : أهمّ خصائص المدرسة الأدبية

1_ إنّ رواد هذه المدرسة لم يهتموا بالتحديد والتقسيم اهتماماً كبيرا ، وكذلك الإقلال من البحث في التعاريف والقواعد والأقسام

كما لم يهتموا باقتباس المنطق والفلسفة في دراستهم البلاغية2_

3_ وإنما عولوا على الذوق السليم والإحساس الرقيق في تناول النص والنظر إليه والحكم عليه واستعمال المقاييس الفنية في الحكم على الأدب

4_ تعتمد في النقد الأدبي على الذوق الفني وحاسة الجمال أكثر من اعتمادها على تصحيح الأقسام وسلامة النظر المنطقي

5_ شنّوا حرباً على الحدود والرسوم ومصطلحات الفلسفة والمنطق وإقحامها في الأحكام النقدية والمصطلحات البلاغية

6_ كما أكثر رجال هذه المدرسة إلى حدّ الإسراف من الأمثلة والشواهد وبخاصة في القرآن الكريم والأدب الرفيع

7_ فإذا ما تعرضوا للقاعدة ذكروها بإيجاز

8_ معظم روادها من الأدباء والشعراء الذين كانوا في البيئات الغربية وفي المناطق الوسطى في العالم الإسلامي كالعراق ومصر والشام والمنطقة الغربية في شمال إفريقيا من رواد هذه المدرسة الجاحظ ، وابن سنان وعبد القاهر الجرجاني

وأهمّ الكتب التي تضمنت آثارها

* كتاب البديع لابن المعتز

*كتاب الصناعتين للعسكري

*سرّ الفصاحة لابن سنان الخفاجي

*أسرار البلاغة للجرجاني

*البديع في نقد الشعر لابن منقذ

*والمثل السائر والجامع الكبير لابن الأثير

*وتحرير التعبير لابن أبي الإصبع

ثانياً : أهمّ خصائص المدرسة الكلامية

1_ اهتم أقطابها بالتعريفات والتحديدات الدقيقة والتقسيمات العقلية اهتماماً كبيراً ، فالتعريف عندهم ينبغي أن يكون جامعاً مانعاً

امتازت بالجدل والمناقشة والتحديد اللفظي والعناية بالتعريف الصحيح والقاعدة المقررة 2_

3_ كما أكثروا من استعمال الألفاظ والمصطلحات المنطقية والفلسفية والكلامية في أثناء تناولهم الموضوعات البلاغية مما يبعدها من مرمى البلاغة وهو شيء كثير ومما لا علاقة له بالحث البلاغي

استعمال أساليب المتكلمين في بحث الموضوعات وحصرها4_

5_كما أنّهم كانوا يمثلون لها بأمثلة مصطنعة أو مقتطعة ، لا يربي الذوق ولا يحدث المتعة

6_ وكان لديهم ميل إلى الدراسات الفلسفية والعلوم العقلية ويعود ذلك إلى قدم الدراسات الفلسفية والعلوم العقلية في التراث الفارسي

7_ ادخل الكلاميون بعض مسائل الفلسفة والطبيعة الإلهية والخلقية كالكلام في الألوان والطعوم والحواس الإنسانية والوهم والخيال والحس المشترك

8_ وشاعت هذه المدرسة في المناطق الشرقية من الدول الإسلامية حيث يقطن خليط من الفرس والترك والتتار وغيرهم مما كانت بلادهم في الأصل أعجمية وكانت خوارزم اكبر المناطق التي ظهر فيها أقطاب هذه المدرسة كالزمخشري والفخر الرازي وأبي الفتح المطرزي والسكاكي وسعد الدين التفتازاني

وفي أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي اتسعت الترجمة وأسست لها دار الحكمة9

ومن أشهر المترجمين عبدالله بن المقفع ت 143هـ فقد ترجم عن الفارسية كتباً تاريخية مختلفة وأخرى أدبية وسياسية كما ترجم (كليلة ودمنة) وأجزاء من منطق أرسطو طاليس وأكبّ من السريان وغيرهم ينقلون التراث اليوناني والفارسي والهندي

وأهمّ كتب هذه المدرسة :

* نقد الشعر – قدامة بن جعفر
* البرهان في وجوه البيان – ابن وهب الكاتب
*دلائل الإعجاز – الجرجاني
*نهاية الإيجاز – الرازي
*مفتاح العلوم – السكاكي
*تلخيص المفتاح والإيضاح – الخطيب القزويني

ثالثا : وهناك اتجاه يمزج خصائص الكلاميين من البلغاء وأولئك الأدباء حتى يكاد يشكل مدرسة واحدة

وتلحظ هذا في كتابي عبد القاهر الجرجاني (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة)

فنجد عبد القاهر في (أسرار البلاغة) بليغاً أديباً ويتمثل ذلك في :

1_ حديثه عن قضية الإعجاز في هذا الكتاب

2_ الاعتماد على الحاسة الفنية وتمكين الذوق الأدبي

3_ الخلو من الأسلوب المنطقي الاستدلالي

4_ التحليل الأدبي التفصيلي لما يعرض عليه من قضايا

أما في كتاب (دلائل الإعجاز) فكان عبد القاهر بليغا كلامي الدرس

1_ فقد عني في هذه الكتاب بقضية إعجاز القرآن

2_ واستخدم في مناقشة الجدل المنطقي

3_ وأتى بالأدلة والبراهين

4_ واتكأ على أسلوب الفلاسفة